دور مؤسسات التعليم بوادي ميزاب في الحفاظ على الهوية الوطنية معهد الحياة 1925م بغرداية نموذجاً

كمال عويسي،
جامعة غرداية،

ملخص:

لقد ساهم الجنوب الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق وبكل الوسائل المتوفرة له آنذاك،وتعد المؤسسات التربوية أهم وسيلة اهتم بها سكان الجنوب للدفاع عن كل محاولات المسخ التي سعى المستعمر الفرنسي الغاشم تطبيقها من أجل طمس الهوية الوطنية وترسيخ مبدأ الجزائر فرنسية،لكن كانت له مؤسسات التعليم بالمرصاد،ولعل من أبرزها في الجنوب الجزائري الكبير معهد الحياة بالقرارة غرداية والذي أنشئ عام **1925** م،حيث في هذه المقالة سنعرض نشأة وتطور المعهد إلى جانب هياكل معهد الحياة والمتمثلة في جمعية الشباب والكشافة وكيف كان لهم دور بارز في الحفاظ على الهوية الوطنية،كما نتناول المؤسسين الأوائل ودورهم التربوي والديني،وتشجيعهم للطلبة على الحفاظ على تقاليدهم ودينهم وشخصيتهم الوطنية مع الدفاع على حماية الوطن من المستعمر الفرنسي،وفي نفس السياق نبين محتوى البرنامج التعليمي للمعهد قبل الاستقلال ودوره في محو الأمية والجهل على سكان القاطنين.

Résumé :

Le rôle des établissements enseignants dans la vallée d'Mzab pour la conservation de l'identité nationale L'institut de la vie 1925, GHARDAIA modèle

Le Sud de l'Algérie a contribué à la résistance contre le colonialisme français de diverses manières et par tous les moyens en sa possession. Aussi, les établissements éducatifs furent mobilisés par les habitants du Sud pour conter le projet colonial de l'Algérie française visant l'anéantissement de l'identité nationale. L'Institut de la vie fondé en 1925 à Guerrara (Ghardaia) fut à l'avant-garde de la résistance du Grand Sud.

Dans cette étude, nous mettrons en évidence les conditions qui ont présidé à la création de cet Institut et son évolution. Ce qui nous amènera à évoquer la contribution de L'Association de la Jeunesse ainsi que celle des Scouts musulmans dans la préservation de la personnalité algérienne. Notre attention ira vers les fondateurs et le rôle qu'ils ont joué dans l'alphabétisation,

l'éducation de la population et l'éveil national et partant la mise en échec de la colonisation.

تمهيد:

ساهم الجنوب الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق وبكل الوسائل المتوفرة له آنذاك،وتعد المؤسسات التربوية أهم وسيلة اهتم بها سكان الجنوب للدفاع عن كل محاولات المسخ التي سعى المستعمر الفرنسي الغاشم إلى تطبيقها من أجل طمس الهوية الوطنية وترسيخ مبدأ الجزائر فرنسية،لكن كانت له مؤسسات التعليم بالمرصاد،ولعل من أبرزها في الجنوب الجزائري الكبير معهد الحياة بالقرارة ولاية غرداية والذي أنشئ عام **1925**م، فكيف كانت نشأة وتطور المعهد؟ وما الهياكل والمؤسسات التابعة له؟ وهل كان لها دور بارز في الحفاظ على الهوية الوطنية؟ومن هم المؤسسون الأوائل ؟ وفيم تمثل دورهم التربوي والديني والوطني.

1- وادي ميزاب:الموقع الجغرافي والبعد الحضاري

تقع منطقة وادي ميزاب بجنوب الجزائروتبعد عن العاصمة بحوالي ستمائة كيلومتر وهي تتواجد في إقليم جاف يتسم بكل خصائص البيئة الصحراوية على هضبة صخرية كلسية تدعى "الحمادة " تنحدر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهي ذات ارتفاع بين **300**- **800** م عن سطح البحر. والمنطقة تتربع على مساحة شاسعة تقدر بـ **8000** كلم^2،أما من الناحية الفلكية فهي بين خطي عرض (**31**- **15**) شمال خط الاستواء إلى **33**° وخطي طول (**2**- **30**) شرقا وتبلغ مساحة هذا الوادي "وادي مزاب " **2.750.000** هكتار :(coyn,a,1879:03)

وهذه المنطقة تدعى جغرافيا ببلاد الشبكة سميت كذلك لأنها تتكون من جبال ذات ارتفاع عالٍ نسبيا، وهي تخترقها أودية ضيقة وبين هذه الجبال شعاب كثيرة (صالح،س،**2005**: **592**)وتضمّ منطقة ميزاب سبع قرى أولها العطف أو تجنينت بالبربرية ثمّ "آت بنوة"(**1046**م)، غرداية (تغردايت **1053**م)، قرية مليكة (آت مليشت **1124**م)، بني يزقن(**1347**م)، تبعتها القرارة (**1630**م) وبريان (**1679**م)(صالح، ح، **2006**:7)

إن مدن ميزاب لها شكل مورفولوجي خاص موحد، فهي كلها تشبه الهرم، حيث تشترك في مبدأ الطابع الإسلامي العربي، ولهذا أصبحت مدن وادي مزاب ذات طابع معماري إسلامي متميز،بمعنى أن كل ماله علاقة

بالدين الإسلامي يحتل أعلى الهضبة، ولهذا كانت المساجد هي التي تأخذ هذا الموقع الرفيع، وكل ماله علاقة بالدنيوي "الحياة المادية" تأخذ مكانه أسفل الوادي كالمنازل والأسواق(Ben youcef,b,1992:32) وتتكون المدينة المزابية من عدة منشآت ومباني تتدرج من أعلى الهضبة ولكل منها وظيفة محددة، إلا أنها تُكون مع بعضها البعض نسقا متكاملا، حيث تتشكل هذه المورفولوجية من ثلاث عناصر رمزية تغدي المخيال الاجتماعي للمزابين وهي: البئر لضمان الحياة، البرج لضمان السلم، والمصلى لضمان المذهب،وهذا كله في صورة هندسية معمارية متميزة (عبد العزيز،خ، **1999**:**106**)

إن هذه البيئة الحضارية والتاريخية المتجدرة و أصالتها المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف،جعلها تنتج أفرادا متميزين تركوا بصمة علمية وحياتية في المجتمع الجزائري،ولعل أبرز هؤلاء هو الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض والذي كان له الفضل في تأسيس معهد الحياة،فمن هو الشيخ إبراهيم بيوض؟ وما أبرز إسهاماته؟

2- الشيخ إبراهيم بيوض:المؤسس والمربي

يعد الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض أحد الدعائم الأساسية في الحركة الإصلاحية الجزائرية،وهذا للدور الذي قام به لبعث النهضة الوطنية الحديثة،مع رفقاء دربه زعماء الإصلاح في الجزائر،فقد كان الشيخ مناضلا ومجاهداً على ثلاث جبهات: الجمود الفكري والاستعمار الغاشم الفرنسي الذي كان جاثما على الجزائر سنين عديدة وأخيراً الفساد بكل أنواعه الديني والاجتماعي والأخلاقي.(محمد ن، **2004**:**31**)

2- 1) إبراهيم بيوض:نشأته وتعليمه

ولد إبراهيم بيوض في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة سنة **1316**هـ الموافق لـ **22** أفريل **1899**م في مدينة القرارة بوادي مزاب، وبالنسبة للقبه بيوض فقد كان لقب جده الثاني إبراهيم بن حمو ولذلك لكونه جميل الهيأة وأبيض اللون ولهذا بقي هذا اللقب متوارث في ذريته من بعده (محمد ،د ،دتا:**83**)' وقد أدخله أبوه عمر بن بابة إلى الكتاتيب،أين حفظ القرآن الكريم واخذ مبادئ العربية وعلوم الشريعة عن مشائخه الحاج إبراهيم البريكي،أبو العلا عبد الله بن إبراهيم،وفي **1921** م انتقل إلى

تونس وحضر العديد من الدروس العلمية وتعرف على أهم علماء الزيتونة البارزين).(بكير، أ، **1987**: **36**)

2- 2) إسهاماته في المجتمع الجزائري:

ما إن بلغ الشيخ إبراهيم بيوض العشرين من عمره حتّى دخل معترك الحياة الاجتماعية والسياسية ونضج علميا،وأدرك أن اللغة تعد عنصرا جوهريا في إثبات الهوية الشخصية وإثبات وجود الإنسان بوطنه،ولغة الجزائريين هي اللغة العربية الفصحى والتي يجسدها القرآن الكريم،وبالمحافظة عليها نبني أسساً سليمة في نهضتنا المعاصرة الجزائرية،ومن أجل هذه الحقيقة قام الشيخ إبراهيم بيوض – رحمه الله - تأسيس معهد الحياة بالقرارة،والذي عني بتدريس اللغة العربية وذلك لمواجهة المدارس الفرنسية التي كانت تهدف إلى نشر الثقافة الفرنسية وتحريف أصالة المجتمع الجزائري والدين الإسلامي (بكير، أ، **1987**: **43**)، وإلى جانب تأسيسه لمعهد الحياة **1925**م، والذي كان شعاره " الدين والخلق قبل الثقافة،ومصلحة الوطن قبل مصلحة الفرد"، فقد كان للشيخ أثر على النهضة الإصلاحية وذلك بمشاركته سنة **1931**م في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وصياغة قانونها الأساسي مع انتخابه عضواً فيها (محمد ،ن، **2004**: **29**)

وفي سنة **1937**م أسس جمعية الحياة حيث كانت له من خلالها العديد من المقالات المناهضة للاستعمار الفرنسي إذ انصبت كلها حول الدعوة إلى الوحدة الوطنية والتمسك بالشخصية الجزائرية والدفاع عن اللغة العربية والدين الإسلامي الحنيف(أنور،ج، **144**- **1965**: **148**) مما أدى بالمستعمر الفرنسي إلى فرض الإقامة الجبرية عليه في القرارة وذلك في سنة **1940**م اغتنمها الشيخ في تكوين الطلبة بمعهد الحياة،وبعد انقضاء مدة الإقامة الجبرية أنتخب الشيخ كممثل لوادي مزاب في المجلس الجزائري وذلك سنة **1948**م وأعيد انتخابه سنة **1951**م،ومنذ الفاتح نوفمبر **1954** إلى **19** مارس **1962**م حمل على عاتقه حماية الثورة،فكان رحمه الله يستقبل ويأوي جنود وضباط جيش التحرير ويقوم بجمع السلاح وتموينه وإيصاله إلى مختلف مراكز الثورة في الجبال الشرقية والشمالية بواسطة أبنائه الشباب من التلاميذ. (بيوض، إ، 1990: **16**- **17**)

ومن أهم مؤلفات الشيخ رحمه الله مايلي:

في" رحاب القرآن" وهو عبارة عن كتاب لتفسير القرآن الكريم وكان في لعدد معين من السور، "فتاوى الإمام الشيخ بيوض،أجوبة وفتاوى"، "مسلم لكنه يحلق ويدخن"، "أعمالي في الثورة"، "المجتمع المسجدي"، "نظام حلقة العزابة بميزاب"، "بلاد ميزاب"، "ثبوت الهلال بين الرؤية البصرية وحساب المراصد الفلكية"، "نبذة في حرمة المساجد وبيوت العبادة في الإسلام"، إضافة إلى العديد من المحاضرات والمنشورات (بيوض،إ، **1990**:**16** - **20**)،وبعد هذا العطاء الفكري انتقل الشيخ المربي إبراهيم إلى الرفيق الأعلى يوم الأربعاء **8** ربيع الأول **1401**هـ الموافق لـ **14** جانفي **1981**م عن عمر يناهز **84** سنة (محمد،ن، **2004**:**18**)وترك لنا رسالة ضمنها الحرص على تربية النشء تربية إسلامية صحيحة وتكوين الرجال تكوينا سليما يقوى على المجابهة والفداء من أجل الوطن،وإعداد جنود أشداء أقوياء مسلحين بالإيمان واليقين، وتحرير الجزائر شبراً شبراً من براثين الاستعمار الفرنسي الغاشم .

3) معهد الحياة : النشأة والمجال التربوي

3- 1) النشأة و الغاية :

يعتبر معهد الحياة من المعاهد ذات البعد العربي والإسلامي فهو مشروع علمي وتربوي واجتماعي عصري ومتطور، حيث نشأ في فترة كانت تتخبط في انحطاط وجهل، إضافة إلى المستعمر الغاشم الذي سعى إلى مسخ الشخصية الإسلامية والوطنية .

لقد تأسس معهد الحياة في سرية عن المستعمر الفرنسي وذلك في يوم **28** شوال **1343**هـ الموافق لـ**21** ماي **1925**م بمنزل الشيخ المؤسس وسماه ب "معهد الشباب " ثم تحول إلى المسجد الكبير في قلب المدينة (حمو،ش، **2001**:**361**) فقد كان الحل الوحيد للشيخ لمواجهة الثقافة الفرنسية التي تسعى إلى تحريف ومسخ أصالة الجزائري ودينه الإسلامي (بكير،أ، **1987**:**43**) ولهذا تجسدت أهداف التعليم في المعهد في :

أهداف عامة :

1) طلب رضا الله .

2) نيل العلم .

3) محو الجهل.

أهداف خاصة :

1) تكوين الملكات في مختلف الفنون وتثقيف العقل .

2) تربية النفس تربية صحيحة وإعدادها لتحمل الرسالة المنوطة بها وهي السعي لإصلاح ما أفسده المستعمر في الدين والوطن.

3) تكوين أفراد قادرين على تولي القضاء والإفتاء والتدريس والعديد من الأعمال التي من شأنها أن تساهم بقسط كبير في إصلاح المجتمع والوطن. (سعيد ،ش، **2009**:**62**)

3- 2) مقررات المعهد ونظامه:

من المواد التي تدرس بالمعهد خاصة في مراحله الأولى مايلي:

العقيدة، الفقه، المنطق، اللغة العربية وتخصصاتها" صرف، بلاغة، نحو..." الرياضيات والمتون (سعيد ، ش، **2009**:**57**) وقد قدم الشيخ بيوض دروساً اجتماعية ووطنية مستقاة من قادة الإصلاح أمثال محمد عبده،رشيد رضا ،جمال الدين الأفغاني، عبد الحميد ابن باديس،والبشير الإبراهيمي، وكذا من بعض المجلات الشرقية كمجلة "الفتح"، " الرسالة" " الصرخة" و"الصاعقة" والتي ألهبت حماسة التلاميذ وأكسبتهم المثل الوطنية العليا وزادتهم شعورا بالظلم الذي يسلطه المستعمر الفرنسي على الجزائر والمشاكل التي يعانيها المجتمع من جهل وتخلف وفقر.

إن هذه المقالات التي كان يطلعها الشيخ على تلاميذه بأسلوبه الخاص والمشوق وفصاحته التي يتمتع بها جعلت الكثير من التلاميذ يختارون الجهاد المقدس سواء بالقلم أو السلاح من أجل تخليص الجزائر من المستعمر الفرنسي(إسماعيل،ح، **26**:**2002**).

أما توقيت الدراسة فكان يبدأ قبل الفجر بساعة للحفظ والتكرار ثم من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وبعدها يترك للطلبة ساعة للاستراحة بعدها مباشرة إلى قبيل آذان الظهر ويليها فترة من بعد صلاة العصر إلى قبيل غروب الشمس وأخيراً من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ثم بعد ساعة تستأنف الدروس الليلية في المعهد وتدوم ساعتين (سعيد، ش، **57**:**2009**)

وقد اعتمد معهد الحياة لمواصلة مسيرته العلمية والوطنية على مؤسسات ابتكرها لمساعدته في أعماله التربوية والإصلاحية، ونحاول تسليط الضوء عليها وبشكل مختصر في العنوان التالي.

4) مؤسسات المعهد :النشأة والبعد التربوي

بتطور المعهد وتعدد تخصصاته التعليمية وكذا ازدياد عدد الطلبة والمشاريع التربوية،وترسخ المسؤولين عن المعهد ضرورة ملحة وهي إنشاء مؤسسات تعمل كآليات تنظيمية للحفاظ على المعهد وضمان استمراريته ولعل من بين أهم هذه المؤسسات نذكر ما يلي:

4- 1) جمعية الشباب(1345هـ- 1926م):

لقد كان لجمعية الشباب دور هام في تطور المعهد،فهي تمثل ميكانيزم المعهد ومنتج لأفكار والمشاريع التربوية والاجتماعية،حيث كان للجمعية نشاطات أدبية واجتماعية في العديد من المجالات،كنظم القصائد وتلحين أناشيد حماسية ووطنية،كما تقوم بتمثيل المسرحيات من إنتاجها ومقتبسة من روايات كتبها أعضائها مجسدين حالة المجتمع الجزائري ومعاناته في ضل هيمنة المستعمر الفرنسي من أجل إيقاظ الهمم وبث الروح الوطنية. (سعيد،ش، **2009**:**79**)

ويرجع الفضل في اقتراح نشأة هذه الجمعية إلى الشيخ أبو اليقضان وقد تبناها عمليا الشيخ عدّون،وفي بداية تأسيسها كانت سرية في البداية،لكون المستعمر الفرنسي كان يمنع التجمعات العامة.

ولم يقتصر دور الجمعية في داخل المعهد بل تعداه إلى خارجه،كإقامة الاحتفالات الدينية والدعاية للنهضة الإصلاحية،وتعريف أفراد المنطقة تاريخهم ودينهم(حميد،أ، **2004**:**117**)،ولعل هذا الدور الذي تقوم به جمعية الشباب جعل المعهد يطورها ويشجع أعضاءها،مما أدى بهذه الجمعية إلى إصدار مجلة الشباب،فما هي هذه المجلة؟وفيم يتمثل دورها؟.

4- 2) مجلة الشباب (1345هـ- 1926م):

تصدر المجلة كل أسبوع ويشارك في تحريرها جميع الطلبة،ويختار لكتابتها من يتقن الخط،كما أن المجلة تقرأ في اجتماع ووقت خاص،وقد مرت المجلة بعدة مراحل زادت من تطورها وجماليتها حتى أصبحت على شكل معلقات حائطية مزينة بالرسوم والألوان،وفي المجلة يتنافس الطلبة بإبداعاتهم وتخريجها ونشر المقالات فيها (سعيد،ش، **2009**:**79**)

وقد تغير إسمها فيما بعد وسميت بمجلة الحياة وذلك بعد تأسيس جمعية الحياة **1937**م و في سنة **1988**م أصبح إسمها مجلة " الشباب الرائد"

وأصبحت تضم مقالات علمية وبحوث في الإعجاز العلمي. (عيسى، ب، 2009: **18**- **19**)

4- 3) مكتبة الحياة:

تكونت في البداية من بعض كتب الشيخ المؤسس إبراهيم بيّوض و كانت تسمى "دار القرّاء" وحاليا أطلق عليها إسم "مكتبة الحياة" وفي فترة الخمسينيات تطورت برامج المعهد التعليمية،مما جعل القائمين عليها يشرعون في إثرائها بجميع الكتب في تخصصات عديدة عليمية وأدبية،وجدير بالذكر أن الذي ترأسها كان يدعى مصطفى بن بكير حشحوش" والذي أدخل عليها أنظمة حديثة مثل الفهارس واستعمال البطاقات البيوغرافية. (سعيد، ش، **2009**: **80**)

4- 4) جمعية قدماء التلاميذ(1368هـ - 1948م)

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية خفف الاستعمار الفرنسي من جنود جيشه في منطقة واد ميزاب "غرداية" وذلك راجع للحروب التي خاضتها فرنسا مع دول الحلف والتي ألحقت بها خسائر فادحة على جميع الأصعدة،ولعل انشغال المستعمر بترميم صفوفه فسح للناشطين الإصلاحيين المجال بتكثيف جهودهم التربوية والوطنية،ومن بين أبرز هذه التحولات إنشاء جمعية قدماء التلاميذ بمعهد الحياة،وقد برز دور هذه الجمعية في تكوين التلاميذ الجدد الذين أعادوا إنتاج فكر الجهادي ضد الغزاة الفرنسيين وترسيخ قيم الولاء للوطن وتحريره شبراً شبراً،مما أدى إلى سجن الكثير من أعضاء الجمعية أين عذبوا وأهينوا داخل الزنزانات،ورغم هذا لم يستطع المستعمر الفرنسي أن يوقف حماسهم،بل لما خرجوا من السجون استأنفوا عملهم بكل قوة وحماسة. (محمد، د، دتا: **186**- **188**)

ومن أهم الأهداف التي تسعى الجمعية إلى تحقيقها :

1- توجيه التلاميذ المتخرجين في المدارس إلى الأعمال الصالحة وإرشاد من انحرف منهم وإرجاعه إلى جادة الصواب.

2- دعم المشاريع العلمية وتثمينها والعمل على الإصلاح العلمي والاجتماعي بكل الوسائل المتاحة سواء بالاجتماعات واللقاءات مع التلاميذ وأفراد المجتمع.

3- إعانة التلاميذ الفقراء العاجزين على إكمال دراستهم من ماديا ومعنويا (محمد ،د ،دتا :**226- 227**).

4- 5) كشافة الجنوب (1365هـ - 1946م)

تعد إحدى هياكل المعهد التربوية والتي أنشئت للتربية الجسمية، العقلية، الخلقية والاجتماعية، ويتمثل دورها الجوهري في غرس قيم الرجولة والشجاعة والاعتماد على النفس في نفوس أعضائها (حميد ،أ ، **2004**:**125**).

وللكشافة أعمال عديدة منها قيامها بخدمات تطوعية في المشاريع الكبرى في المساجد والمدارس وبناء السدود وغرس الأشجار وتعديلها وفلاحة الأراضي الخصبة، كما يقوم المنخرطون في الكشافة بالتخييم بمناطق صحراوية لأيام عديدة من أجل التعود على مناخ الصحراء ودراستها ورسم خرائط جغرافية تدل عليها.

إضافة لهذه الأدوار تشرف الكشافة على تنظيم الحفلات والأعراس وتشارك فيها بأناشيدها ونشاطاتها التثقيفية والتوعوية، وبالنسبة لأعضائها فهي تعلمهم العديد من النشاطات التربوية والدينية وحتى الرياضية، كتعليمهم السباحة في الأحواض، السباحة في الآبار، وتسلق النخيل وهي من أهم الوسائل الناجحة لتربية الشجاعة ورياضة الجسم، لكن بحلول الاستقلال توحدت الجمعيات الكشفية في الجزائر كلها، وانضمت كشافة الجنوب هي الأخرى تحت لواء الكشافة الإسلامية الجزائرية وأصبحت فرعاً منها، وانقسمت إلى أفواج منها:

فوج الحياة في القرارة، فوج الإصلاح في غرداية، فوج النهضة بالعطف، فوج الفتح ببريان(محمد ،د ،دتا :**226- 227**).

4- 6) داخلية الحياة:خلال الخمسينيات

في السنوات الأولى لنشأة المعهد كان الطلبة لديهم بيوت يسكنونها ودور بوسط مدينة القرارة، كان قد تبرع بها السكان القاطنون بالبلدة والبعض الأخر كان يكتري هذه المنازل وكانت الدار الواحدة تسع شخصين أو ثلاث على الأكثر لكن مع تزايد عدد الطلبة الوافدين من جميع أنحاء غرداية ومن الشمال الجزائري الذي أدى إلى ارتفاع عددهم وأصبحت المنازل لا تتسع لهم، لذلك أصبح الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض

يفكر حل لهذه المشكلة،وبهذا اهتدى لحل هذه المعضلة بإنشاء داخلية كبيرة بمعناها الحديث إقامات جامعية للطلبة وهي ذات طبقات متعددة تأوي جميع الطلبة،وقد راعى الشيخ فيها من الناحية الهندسية جميع متطلبات وحاجيات التلاميذ، ووضع لهم نظام صارم من حيث المأكل والمشرب والمرقد،كما أصبح للداخلية دور كبير في تنظيم العديد من اللقاءات والجمعيات أدبية والفرق الفنية والنشاطات الرياضية (سعيد،ش، **2009**:**82**).

إن تطور المعهد وتخريج دفعات عديدة مع استخدامه الأمثل للهياكل التي ذكرناها سابقاً بجدية متفانية جعلته يوسع اهتماماته ويحسن من مخرجاته،ولهذا أراد المسؤولون عن المعهد أن لا يبقى تركيزهم على مستوى الداخل فقط ولكن أرادوا أن يتفتحوا على العالم الخارجي ويتعرفوا عليه،ويحتكوا بعلماء المشرقيين من مصريين وتونسيين ويتابعوا الأحداث الجديدة والعلوم المتقدمة من أجل كسب الخبرة والاستفادة من الخبرات من جهة،ومن جهة أخرى حتى ينشروا نموذج المعهد ويعرفوا به وبالقضية الجزائرية،ولهذا قام المعهد بإرسال بعثات علمية نتعرف عليها في العنوان التالي.

5) بعثات المعهد العلمية إلى الخارج:

لقد كان مؤسسو معهد الحياة وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم بن عمر بيّوض "رحمة الله عليه" يشرفون على البعثات العلمية التي ابتكروها من اجل الطلبة وتحفيزهم على طلب العلم والتزود بالمعارف من جامعات ومعاهد عربية،وتكوينهم تكوينا خلقيا واجتماعيا (حميد،أ، **2004**:**126**).

ولقد أرسل المعهد من تلاميذه عدة أفواج إلى تونس للدراسة والتخصص في الجامعة الزيتونية وفي معاهد داخل تونس،فأتموا دراستهم بنجاح انتقل الكثير منهم للدراسة والبحث إلى جامعات عربية أخرى وأجنبية أيضا كأوربا وأمريكا وكانوا يضرب بهم المثل في حسن أخلاقهم وسيرتهم وتنظيمهم وكانوا أحسن عنوان للجزائر بصلاحهم وجدهم وطموحهم وعقولهم الواعية،وهذا كله يرجع بالفضل إلى المعهد الذي رسخ فيهم مبادئ ودروس وقيم الاجتهاد والسلوك المهذب،ولعل نجاح الباهر الذي حققه تلاميذ المعهد في الجامعات العربية جعل الكثير من هذه الجامعات تعترف بشهادة الأكاديمية لمعهد الحياة.

إن أول بعثات المعهد العليمة بدأت إلى تونس الشقيقة وذلك كان في سنة **1368**هـ الموافق لـ **1948**م، وقد عمد الاستعمار الفرنسي إلى غلق الحدود التونسية بسبب انتقال السلاح منها إلى مجاهدي جبهة التحرير الوطني،وقد نجحت البعثة في الجامعات التونسية وكانوا أول الفائزين في الامتحانات،وقد شرفوا الجزائر،ومن اجل تدعيم هؤلاء التلاميذ لاسيما وأنهم يعيشون في غربة ولأجل توفير لهم كل متطلبات الحياة المادية والمعنوية،قامت الجمعيات الخيرية بميزاب بشراء دار واسعة وبها كل ما يحتاجونه الطلبة لمواصلة ميسرتهم العلمية،بل وأرسل لهم المعهد رئيسا من أبناء المعهد يوجههم ويواصل شحنهم بالقيم التربوية والدينية والخلقية والعقلية التي أسس عليها معهد الحياة. (محمد ،د ،دتا:**117**- **118**).

وإضافة إلى ما كان يدرس التلاميذ في المدارس الأهلية التونسية، فإن دروسا وحصصا إضافية كانوا يتلقونها في دار البعثة، ففي مادة القرآن كان يتولى التدريس في بداية العشرينات الشيخ الفقيه علي بن يعقوب النفوسي. وفي الحديث كانوا يتلقون الأربعين النووية للنووي، وفي العقيدة متن التوحيد الذي عربه أبو حفص عمر بن جميع مع شرحه، ويتولى ذلك رئيس البعثة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، كما يتناولون بالحفظ متن الأجرومية وألفية ابن مالك في النحو وأرجوزة الرحبية في علم الميراث وعند عودة أبو اليقضان إلى الجزائر عام **1925** م استخلف السيد قاسم بن الحاج عيسى على البعثة، ليتفرغ أبو اليقظان لمشروعه التاريخي في مجال الصحافة العربية الحرة (حمو ،ف، **2001**:**42**).

وتواصلت البعثات المزابية إلى تونس بين الحرب العالمية الأولى والثانية حيث شهد اقبال كبير للطلبة الوافدين إلى تونس وذلك بفضل صمعة الطلبة المزابين بتفوقهم العلمي والأخلاقي، وكذلك بفعل مشاركة المزابيين في الحياة السياسية بتونس خاصة في الحزب الحر الدستوري برئاسة عبد العزيز الثعالبي، مع بروز مشاركات معتبرة في النشاط الأدبي التونسي، فلم يقتصر حينئذ الأمر على المزابيين بل شمل مناطق مختلفة مع التفاوت في الدرجات وقد استمرت البعثات العلمية الجزائرية من أبناء وادي مزاب إلى تونس حتى أخذ الجزائر استقلالها من العدو الغاشم الفرنسي (أبو القاسم ،س، **1998**:**274**).

إن البعثات العلمية التي كان يشرف عليها معهد الحياة إلى تونس أتت بثمارها وذلك بفضل القيادة الحكيمة التي تمثلت في شيوخ المعهد ومسيريه حيث تخرج عدد لا بأس به من طلبة أبناء ميزاب ولعل من بينهم والذي ذاع صيته في أواخر قرن العشرينيات هو الشاعر الثوري الراحل مفدي زكرياء الذي كان يأمل أن يكون مشهورا على غرار أمير الشعراء تونس الشاذلي خزندار (1881-1954) إضافة لمفدي زكريا فقد سطع نجم آخر لشاعر من منطقة وادي مزاب تخرج هو الآخر من تونس الخضر ألا وهو رمضان حمود الذي كان يدخل في مناظرات أدبية مع شاعر التونسي المشهور أبي القاسم الشابي، حيث كانا يتباريان في الشعر وذلك في حلقات الدروس بجامع الزيتونة وخارجها، وطبعا لم تقتصر الدفعات المتخرجة من تونس على هاذين الشاعرين بل ظهر أيضا الشاب باسعيد عدون الذي التحق بالمدرسة الصادقية والتي مانت تعد من أهم المدارس النظامية بالعاصمة التونسية، كما أن يوسف بن قاسم تازبينت وسليمان بن صالح نجار اللذان التحقا بمعهد كارنو (carnot) الثانوي بتونس(حمو، ف، **2001**: **45**).

وفي هذه المرحلة التاريخية لم تكن فرنسا غافلة عما يحدث من تطور علمي على أرض الميدان حيث وجدت تقارير فرنسية لأسماء شخصيات كان لها دور كبير في تقدم الجزائر ونهضتها الثقافية والاجتماعية ممن درسوا في تونس وكان من أبرزهم الشيخ صالح بابكر مؤسس جمعية الإصلاح التي كانت من أهم وأبرز الجمعيات المحلية بوادي مزاب، إضافة إلى محمد لعساكر وصالح الخريفي، وعلي معمر النفوسي وغيرهم من أبناء منطقة وادي مزاب (أبو القاسم، س، **1998**: **275**).

خاتمة

لقد تم تأسيس معهد الحياة بالقرارة في وقت تكالبت فيه الأمم على العالم الإسلامي عامة والجزائر خاصة، وذلك قصد محو معالم الشخصية الإسلامية والهوية الوطنية بكل الوسائل والطرق المتاحة آنذاك، فجوعوا الشعب بأساليبهم القمعية، ومنعوه من التعلم ومعرفة أبسط حقوقه، وقتلوا وشردوا وعذبوا العديد من أبناء هذا الوطن، وأمام هذا السياق السوسيو تاريخي والاقتصادي فكر الأجداد في إيجاد حلٍ لهذا الوضعية المأساوية التي كان يعاني منها المجتمع الجزائري.

إن أبرز مظهر تجلى فيه الإصلاح الديني والاجتماعي خاصة في الجنوب الجزائري تمثل في معهد الحياة وهو مشروع قام بفكرة كانت بذورها تنبع من قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش – رحمه الله – وواصل على تطويرها وتجسيدها رائد النهضة في الجنوب الجزائري الكبير الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض حينما اقتنع أن الاهتمام بقطاع التربية والتعليم هو المخلص لهذا المجتمع من التخلف والانحطاط الذي يعيش فيه، وإعداد أجيال من الطلبة مثقفة وقادرة على حمل راية العلم،وخدمة وطنها ،وهذا ما قام به المعهد بمختلف هياكله في تجسيده على أرض الواقع ونجح نجاحا باهر بشهادة التاريخ.

قائمة المراجع والمصادر

المراجع العربية

1- محمد ناصر: **2004**، **الشيخ إبراهيم بيوض المصلح والمربي**، عمان،مكتبة الجيل الواعد.

2- أنور الجندي: **1965**،**الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا**، مصر،الدار القومية للطباعة.

3- بكير سعيد أعوشنت: **1987**،**الإمام إبراهيم بيوض وجهاده الإسلامي في الجزائر**، ،الجزائر،المطبعة العربية.

4- جمعية التراث: **1990**،**بيوض إبراهيم بن عمر**،باتنة،الجزائر، ،لزيتونة للإعلام والنشر.

5- حمو الشهاني: **2001**،**الفكر العقدي عند الشيخ بيوض وآثاره في الإصلاح**، الجزائر، دار الخلدونية.

6- حميد أوجانة: **2004**،**أسس التربية والتعليم لمعهد الحياة**،مجلة الحياة، جمعية التراث، عدد **08** .

7- سعيد بن بلحاج شريف : **2009**، **معهد الحياة نشأته وتطوره**،ط**2**، غرداية، الجزائر، جمعية التراث.

8- صالح اسماوي: **2005**، **العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بميزاب**،ج**1**، غرداية، المطبعة العربية.

9- عبد العزيز خواجة: **1999**،**الضبط الاجتماعي ومعوقاته في وادي ميزاب،دراسة سوسيوانثربولوجيا لنظام العزابة من خلال مواقف الشباب "حالة قرية بني يزقن** "، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية علم الاجتماع، جامعة الجزائر.

10- عمر إسماعيل آل حكيم: **2002**،**مقابلة مع شاهد القرن عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، "سعيد بن بالحاج شريفي"**، الحقوق محفوظة للمؤلف.

11- عيسى بن محمد الشيخ بالحاج: **2009**،**معهد الحياة "الدين والخلق قبل الثقافة ومصلحة الجامعة والوطن قبل مصلحة الفرد"**،ج القرارة، غرداية، الجزائر، جمعية الحياة وجمعية التراث.

12- محمد علي دبوز: **1978**،**أعلام الإصلاح في الجزائر**، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.

13- محمد علي دبوز: **1969**،**نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**،ج**3**، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.

14- يوسف الحاج سعيد: **2006**،**تاريخ بني مزاب،دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية**، ط**2**، غرداية، الجزائر المطبعة العربية.

المراجع باللغة الفرنسية:

15- A.coyn: **le M'Zab**, 1879, extrait de la revue africaine, Adolph Jourdan, Alger,.

16- B.Ben Yousef, 1992, **La M'Zab**: **Espace et société**, Alger, Imprimerie Abou Daoud,

المواقع الالكترونية:

17- www.mzabnet.com/biodموقع إلكتورني في حياة الشيخ إبراهيم بيوض